

التأويل في رسائل النور

أ.د. صدر الدين كوموش^P

بعد توضيح معنى التأويل بشكل مختصر سنسعى لإيضاح ما أجري من التأويل في رسائل النور. التأويل: مصدر على صيغة التفعيل، ومشتق من "أول" بمعنى الرجوع للأصل وتفيد عدة معاني منها: تدوير، قلب، الايصال للمقصود، النتيجة، العاقبة، الجزاء¹ وما إليها من المعاني. والمقصود منه في الكلام سياق وإيصال المعنى لما يراد منه، أي توضيحه.¹

والتأويل اصطلاحاً، يعني "توضيح اللفظ لا حسب معناه الظاهري بل حسب ما يُحتمل من المعنى الموافق للكتاب والسنة". والتفسير لغة يأتي بمعنى "الشرح والاستبانة" واصطلاحاً هو شرح معنى الآية وملاساتها وقصتها وسبب نزولها بلفظ يدل على المعنى بصورة واضحة. فمثلاً توضيح الآية {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} بمعنى "يُخْرِجُ الْفَرْخَ مِنَ الْبَيْضِ" تفسير، وتوضيحها بمعنى "يُخْرِجُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ، وَالْعَالَمَ مِنَ الْجَاهِلِ" تأويل.²

هناك وجهات نظر مختلفة بين رجال العلم في موضوع مفهوم التأويل والتفسير. فقسم منهم يستعملون التأويل والتفسير بنفس المعنى، وقسم منهم قد استعمل التفسير بمعنى "الشرح والتوضيح استناداً على الدليل القاطع" والتأويل بمعنى "ترجيح معنى من بين المعاني المحتملة"³ ولم يكن هناك تضاد بين "التفسير" و"التأويل" في المراحل الأولى للإسلام، حتى ان اصطلاح "التأويل" كثيراً ما كان يستعمل في توضيح وشرح معاني القرآن الكريم، ويرجح على اصطلاح "التفسير" فمثلاً سُمِّيَ المفسر ابن جرير الطبري تفسيره الذي كتبه في أواخر القرن الثالث الهجري "التفسير" (922/310) — (جامع البيان عن تأويل آي القرآن). فمثلاً استعمل الطبري كلمة "التأويل"

^P من مواليد مدينة أضروم سنة 1945م حصل على الدكتوراه سنة 1983 وحالياً استاذ في جامعة مرمرة باستانبول، له خمسة كتب منشورة.

1- التأويل حسب رأى المفسر حمدي ألمليلي "تحويل الشئ للغاية المقصودة منه فعلاً وعلماً". فمثلاً: مادامت الغاية المقصودة من الماء هي الحياة، فتحويل الماء الى الحياة تأويل، والحياة مأل الماء (أي غاية توصله)، وفقد معنى الحياة من كلمة "الماء" مجازاً، هو تأويل لفظي. وعلم كيفية الحياة التي تنتجها المادة التي يقال لها "الماء"، هو تأويل معنوي. ويقال لكلا هذين الشكلين "تأويل علمي"، وتحويل الماء فعلاً الى الحياة "تأويل فعلي" (تفسير حق ديني قرآن دلي، جلد 1 / المقدمة، 27)

2- انظر كلمة (التأويل) من كتاب التعريفات/ الشريف علي بن محمد الجرجاني. اذ يقول: التأويل في الاصل الترحيح، وفي الشرح: صرف اللفظ عن معناه الظاهر الى معنى يَحتملُه اذا كان المحتمل الذي يراه موافقاً بالكتاب والسنة مثل قوله تعالى {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} ان اراد به اخراج الطير من البيضة كان تفسيراً وإن اراد اخراج المؤمن من الكافر أو العالم من الجاهل كان تأويلاً.

3- يراجع تفسير المنار

كاصطلاحٍ لعملية التوضيح كافة، وقد استعمله للتوضيحات العقلية أيضاً.⁴ وسيراً على خط مواز لعمله هذا، بل وأكثر من ذلك، فقد اتخذ المعتزلة العلم العقلي⁵ قسماً في تأويل الآيات المتشابهة ولا سيما ما يتعلق منها بصفات الله تعالى. ومع اجتناب علماء السلف عن التأويل بهذا المعنى، لم يجتنب علماء الخلف عن مثل هذه التأويلات. وبالأخص قد سعى أهل الاعتزال للاستفادة عن أسلوب اللغة العربية (ولا سيما عن المجاز) بإستعمال أسلوب التأويل في توضيح الآيات المتشابهة للتوصل إلى النتيجة.⁶

ولتأثير هذه الحركة على أهل السنة، فقد سار الأشاعرة والماتريدية اللذين هما بمثابة سواعد أهل السنة، في موضوع تأويل الآيات المتعلقة بصفات الله تعالى موازياً مع أهل الاعتزال.⁷ وفي أواسط القرن الثالث عشر أصاب الإسلام ضربة كبيرة جراء الإستيلاء المغولي، وقد سعى عالم العلم والفكر في القرن الرابع عشر للقيام بحملات صحوة ونهوض في هذا المجال، إلا أنه لم يستطع الحصول على نشاطه وحيويته السابقة. لذا أصاب عالم العلم والفكر الإسلامي مرحلة جمود لفترة طويلة، بل مرحلة تأخر. غير أننا أصبحنا نرى في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حملات صحوة وحيوية جديدة في مجال العلم والفكر ولا سيما في مصر وتركيا وجنوبي قارة الهند. ويعتبر بديع الزمان من ممثلي ورواد هذه الساحة في تركيا. ومع وجود بعض الفوارق في الفكر والأسلوب في هذه المرحلة، كما هو شأن بقية المراحل بين ممثلي الساحة الفكرية والعلمية، إلا أنهم دافعوا عن الإسلام بأنه دين علم وحضارة، غير أن موازينهم تختلف، فبعضهم يتخذ العقل أساساً في تأويل النقل وتفسيره، وبعضهم يتخذ النقل الصحيح أساساً ويجعل العقل تابعاً لهذا الأساس.

ويعتبر بديع الزمان من المجموعة الأولى الذين يتخذون العقل أساساً في تفسير القرآن، فهو يرى أن العقلي يتخذ أساساً عندما يتعارض مع النقل، ويؤول النقل. وذلك أن القصد هو الأساس. وقد أُلّف كتاباً تحت اسم "الحاكمات" بهذا الموضوع، وهو يأسف على تأخر الأمة لعدم فهمها مقاصد القرآن غاية الأسف قائلاً: "وأأسف.. لقد اتخذنا فتركتنا جوهر الإسلام ولبابه، وحصرنا النظر في قشره وظاهره. وأسأنا الفهم، فأسأنا الأدب معه، وعجزنا عن أن نوفيه حقه حق الإيفاء وما يستحقه من الاحترام، حتى رغب عتاً، ونفر منّا، وتستر بسحائب الأوهام والخيالات"⁸ فكما يترأى أن الاستاذ بديع الزمان يتخذ مقصد الإسلام والقرآن أساساً، ويرى أنه من الخطأ التحرك حسب الظاهر دون التمسك بالجوهر. ومقاصد القرآن الأساسية هي أربعة وهي: التوحيد، والنبوة، والحشر الجسماني، والعدالة. وما في القرآن الكريم من أبحاث خارجة عن هذه المقاصد

4- يراجع نفس المصدر

5- مذهب اعتقادي، له مبادئ خاصة به (خمسة أسس)، اتخذ العقل أساساً. (بكر طوبال أوغلو/ علم الكلام. ص 169).

6- حسب نظرهم هناك آيات محكمة ومتشابهة في القرآن الكريم، إلا أنه لم يُبين أيهما محكمة وأيها متشابهة، ولا يتم التوصل إلى ذلك إلا بالمعرفة العقلية التي هي القسطاس. وحسب هذه النظرة تعتبر ما تتطابق منها مباشرة بالمفاهيم اللغوية، والإصطلاحات العقلية "الحكم الواضح" وما تعارض معها بحيث لا يمكن قبول معانيها اللغوية مباشرة (بالتشابه المبهم) ولا حل إزالة وهم التعارض بين الحكم والمتشابه، فقد توسلوا بعنصر المجاز (أبو زيد، ناصر حامد/ مشكلة تأويل القرآن عبر التاريخ وفي يومنا الحاضر (ترجمة عمر أوزسوي) مجلة الأبحاث الإسلامية، 29/9)

7- بيد أن المعتزلة والخوارج لم تدم وجودها كمدرسة بعد القرن السادس الهجري إلا أن الزمخشري المتوفى سنة 538 الهجرية يعد من ممثلي هذه المدرسة، وقد دوت آراؤهم وأفكارهم في كتب أهل السنة والجماعة. ومع عدم وجود مذهب الاعتزال في يومنا الحاضر، فقد قبل علماء أهل السنة كثيراً من أفكارهم ولا سيما في موضوع تأويل النقل المتعارض مع العقل والتوافق بينهما.

8- صيقل الإسلام/ الحاكمات، ص 22

الأربعة هو بحث استطرادي.⁹

ونفهم من هذا: ان الاستاذ بديع الزمان يرى هذه المقاصد الأربعة اساساً في تفسير القرآن، ويلزم تفسير الآيات على وجهتها. وأية آية تتعارض مع العقل فينبغي تفسيرها على وجهه هذه المقاصد بشكل يوافق العقل، غير ان بديع الزمان يؤكد تأكيداً جازماً على تفسير هذه الآيات موافقاً لبلاغة اللغة العربية وفنونها وقواعدها، وليس تفسيراً اعتباطياً هوائياً.¹⁰ فالجهاز، والاستعارة والكناية وأمثالها من الطرق التي يدل بها اللفظ على المعنى تأتي في مقدمة فنون البلاغة المستعملة في التأويل. وقد انقسم علماء الإسلام في موضوع استعمال المجاز كوسيلة في تفسير القرآن الكريم الى ثلاثة اقسام:

القسم الأول: المعتزلة الذين يستعملون المجاز كسلاح في موضوع تأويل المتون الدينية التي لا يتلائم مع منهجهم وأفكارهم. فهؤلاء يقيمون اللغة على أنها نتاج فكري بشري وقيمون على أنه اصطلاح بشري، وعليه يرون ان العقل يأتي قبل النقل في موضوع العلم.

القسم الثاني: الظاهريون الذين يرفضون وجود المجاز في القرآن الكريم، كما يرفضونه في اللغة، فهؤلاء يتخذون المعنى الظاهر للقرآن الكريم اساساً، ويحيلون المتون المبهمه منه الى الله تعالى، ويقولون أنه لا يعلم المراد من تلك المتون الا الله. وهؤلاء يعتقدون ان اللغة توقيفي، علمها الله لآدم عليه السلام ومنه انتقلت الى أولاده، وعليه يقولون ان اساس العلم الوحي.

القسم الثالث: فهؤلاء يتبعون طريقاً وسطاً في استعمال المجاز لتوضيح المتون الدينية نظراً للقسمين السابقين المرطين، فهؤلاء يشكلون أكثرية المسلمين من الأشاعرة والماتريدية، وفكرهم هو التأليف والتوفيق بين العقل والنقل.

يحتل بديع الزمان مكانته في استعمال المجاز كأداة للتأويل في القسم الثالث الذي يمتاز بالإعتدال والتأليف والتوفيق¹¹. ولأجل استعمال المجاز استعمالاً صحيحاً يوصي بديع الزمان بانخاذ ما يعلم هذا الفن من علوم البلاغة والمنطق دليلاً. والمجاز في نظره وسيلة يستعمله العلماء المتبحرون وليس الجهلاء، وفي هذا الصدد يقول: "إذا وقع المجاز من يد العلم الى يد الجهل ينقلب الى حقيقة، ويفتح الباب للخرافات اذ المجازات والتشبيهات اذا ما اقتطفتها يسار الجهل المظلم من بيمين العلم المنور، او استمرتا وطال عمرهما، انقلبنا الى "حقيقة" مستفرغة من الطراوة والنداوة، فتصير سراباً خادعاً بعدما كانت شراباً زلالاً، وتصبح عجزاً شمطاء بعدما كانت فاتنة حسناء.

نعم! ان شعلة الحقيقة انما تتلمع من المجاز بشفافيته. ولكن بتحوله الى حقيقة يصبح كثيفاً قائماً يحجب الحقيقة الاصلية"¹² فمثلاً، "وما استدلت بعض المفسرين بلفظ "من السماء" في آية {وَيُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ} على نزول المطر من حرم السماء حتى تخيل "البعض" وجود بحر تحت السماء، فنظر البلاغة لا يرى عليه سكة الحقيقة. بل المعنى: من جهة السماء. والتقييد لما عرفت. وقد قيل السماء ما علاك، فالسحاب كالهواء سماء"¹³

ومع هذا يقيم الاستاذ بديع الزمان استعمال التغير في اللغة أي المجاز، والتشبيه، والاستعارة

9- صيقل الإسلام/ المحاكمات، ص 30

10- صيقل الإسلام/ المحاكمات، ص 42

11- صيقل الإسلام/ المحاكمات، المقدمة السادسة

12- صيقل الإسلام/ المحاكمات، ص 40

13- اشارات الإعجاز، ص 138

والكناية وأمثالها من الفنون، بأنها قانون فطري لا يمكن الاستغناء عنها. ويأتي بالكلمات المترادفة والمشاركة دليلاً على التجدد والتغير في اللغة قائلاً: "أن كثيراً من الكلمات أو الحكايات أو الخيالات أو المعاني التي كان السلف يتذوقونها، لم توافق الرغبات الشابة لدى الخلف، لأنها غدت عجوزاً لا زينة لها. لذا أصبحت سبباً لدفعهم إلى ميل التجدد والرغبة في الابتعاد، والجرأة على التغيير. هذه القاعدة جارية في اللغات مثلما هي جارية في الخيالات والمعاني والحكايات ولهذا لا ينبغي الحكم على أي شيء بظاهره؛ إذ من شأن المحقق:

سير غور الموضوع.. والتجرد من المؤثرات الزمانية.. والغوص في اعماق الماضي.. ووزن الأمور بموازين المنطق.. ووجدان منبع كل شيء ومصدره"¹⁴

ومع هذا يجلب الاستاذ بديع الزمان النظر إلى وجوب التصرف بدقة وحذر في هذا الموضوع، وإلى خطورة استعمال المجاز كيفما يشاء. فللمعنى الحقيقي حسب رأيه علامة، والقسطاس الذي يشخص تلك العلامة، هو الحسن المجرد النابع من توازن مقاصد الشريعة. ويجب أن يكون استعمال المجاز تحت قواعد البلاغة، ويعتبر تقييم المجاز حقيقة والحقيقة مجازاً خارج قواعد البلاغة، مساندة لإستبداد الجهل.¹⁵

فكما يترأى أن الاستاذ بديع الزمان يسند جواز المجاز على بعض الأسس. وهذه الأسس هي:

1- للمعنى الحقيقي علامة، فالكلمة أو الجملة أو الآية أو أي متن آخر، التي تحمل هذه العلامة لا يمكن تقييمها بأنها مجاز، أي لا يمكن تأويلها.

2- ولأجل فهم وإدراك ما تحمله أي عبارة من طابع الحقيقة وتشخيصها، ينبغي مقايضة مقاصد الشريعة ومن ثم تقييم النتيجة. والحسن المجرد الذي يتم الحصول عليها في النتيجة هو ميزان الحقيقة.
3- لا يمكن حمل أية كلمة أو متن على المجاز اعتباراً كيفما يشاء، بل ينبغي اجراءها ضمن اطار قواعد البلاغة، وإلا يعتبر التصرف اهوائياً، مما يكون هذا الأمر سبباً لسوء التقييم بين المجاز والحقيقة، وبالأخير يؤدي إلى مساندة استبداد الجهل.

ولأجل حمل أي معنى على المجاز يقول الاستاذ بديع الزمان بضرورة اتباع قواعد البلاغة، ويقول في هذا الموضوع: "أن الخاصية المميزة للتنزيل، الاعجاز، والاعجاز يتولد من ذروة البلاغة، والبلاغة مؤسسة على مزايا وخصائص، لاسيما الاستعارة والمجاز. فمن لم ينظر بمنظارهما لا يفوز بمزاياهما.. فكم في التنزيل من "تنزلات الهية إلى عقول البشر" تسيل ينابيع العلوم في اساليب العرب تأنيساً للأذهان. والتي تعبر عن مراعاة الافهام واحترام الحسيات ومماشاة الأذهان.

ولما كان الامر هكذا.. فلا بد لاهل التفسير ان يقدروا القرآن حق قدره، وألا يخسوا قيمته، وان لا يأولوه بأمر لم تصدقه البلاغة ولم يكن من ميزته. وذلك قد تحقق بوضوح أجلى من كل حقيقة، ان معاني القرآن الكريم حق، كما ان طريقة افادته وتصويره للمعاني بليغة ورفيعة. فمن لا يعزي الجزئيات إلى ذلك المعدن ولا يلحقها بذلك النبع يكن من المبغضين حقه."¹⁶

والآن نذكر بعض الأمثلة التي قدمها بديع الزمان في المجاز:

فقد أول آية {والجبال أوتادا} (سورة النبأ: 7) بأربعة أوجه:

14- صيقل الإسلام/ المحاكمات، ص 40

15- صيقل الإسلام/ المحاكمات، ص 40

16- صيقل الإسلام/ المحاكمات، ص 85

أ- في الوجه الأول من التأويل: تُشبه الجبال بأوتاد السفينة، والجال الفضائي بمحيط كبير، وكرة الأرض بغواصة، والجبال التي توازن كرة الأرض في المجال الفضائي بمثابة الأوتاد الحديدية التي توازن حركة السفينة الجارية.

ب- وفي الوجه الثاني من التأويل: تُشبه الجبال بجهاز التنفس: فالهزات والزعزعات القادمة من داخل الأرض تسكن وتهدأ بواسطتها. وذلك أن الجبال بمثابة مسامات سطح الأرض، فعندما يحدث انفجار أو هزة داخلية تتنفس الأرض بواسطة الجبال فتسكن غضبه وتهدأ حدته. إذن إن استقرار الأرض هو بواسطة الجبال.

ج- وفي الوجه الثالث من التفسير: تعتبر الجبال كعنصر للموازنة في حماية حياة الإنسان. فالأرض تعمر من قبل الإنسان، والإنسان بمثابة عماد هذا الأمر، وحياته تتوقف على حماية منبع الحياة من الماء والتراب والهواء بأكمل وجه وأنظفه. وللجبال دور كبير في حماية نظافة هذه المصادر الثلاثة للحياة، وذلك كما أن الجبال هي مخازن المياه، فلها أيضاً خاصية تجذب رطوبة الهواء، لتنقيه بمثابة الأمشاط المنظفة. وكما أن الجبال تعدل بين الحرارة والبرودة، كذلك هي تنظف الهواء من الغازات المضرة، وتحافظ على التراب من تسلط المستنقعات والطين والبحار.

د- وفي الوجه الرابع من التأويل: تشبه الجبال بأوتاد الخيم. وعليها ان قشرة الأرض قد القيت وفرشت على الأوتاد في المناطق المكتظة بالسلاسل الجبلية كخيم البدو، اما في المناطق ذات الجبال المنفردة، فهي بمثابة خيمة قد أقيمت على وتد واحد فقط.¹⁷

سؤال: {وينزل من السماء من جبال فيها من برد} (سورة النور: 43) يعتبر نزول المطر حسب ظاهر هذه الآية الكريمة من الجبال المشكلة من برد في السماء. كيف توضح هذه الآية؟
الجواب: لو تمسك أي كلام بالمعنى الظاهري ولم ينفصل عنه، من دون أن يكون موافقاً للبلاغة وملائماً للعقل ومطابقاً للمنطق، يعتبر هذا الأمر جموداً وخفوتاً لذلك الكلام. وذلك فالآية الكريمة {قوارير من فضة} (سورة الإنسان: 15) الواردة في وصف اطباق الجنة بأنها بيضاء كالفضة، ووضاءة كالبلور، تتضمن استعارة لطيفة، كالآتي:

بما ان اطباق الجنة ليست من الزجاج، ولا من الفضة، لذا لا يجوز حملها على ظاهر هذه الجملة، وذلك لا يقال لتلك الأطباق "أطباق زجاجية مصنوعة من الفضة". وذلك لا يوجد موافقة بين العنصرين. غير ان المعنى المجازي المراد من قوارير من فضة هو شفافية القوارير وبياض الفضة، أي أن تلك الأطباق شفافة كالزجاج، وبيضاء كالفضة.

"كذلك {من جبال فيها من برد} متضمنة لاستعارتين مؤسستين على خيال شعري بالنظر الى السامع. وذلك الخيال مبني على ملاحظة المشاهدة والمماثلة بين تمثل العالم العلوي وتشكل العالم السفلي. وتلك الملاحظة مبنية على تصور المسابقة والرقابة بين الأرض والجو في لبس الصور من يد القدرة كأن الأرض لما برزت بجبالها اللابسة للبيض من حلال الثلج والبرد في الشتاء، والمتعممة بها في الربيع. ثم تزينت في الصيف بساتينها المتلونة فأظهرت في نظر الحكمة بانقلاباتها معجزة القدرة الإلهية، قابلها جو السماء محاكياً لها مسابقاً معها لإظهار معجزة العظمة الإلهية فبرز مترقعاً ومتمصاً بالسحاب المتقطع جبالا وأطواداً وأودية، والمتلون بألوان مختلفة مصورة لبساتين الأرض، ملوحاً ذلك الجو بأجلى دلائل العظمة وأجلها. فبناء على هذه الرؤية والمشاهدة والتوهم الخيالي استحسّن اسلوب

العرب تشبيه السحاب لا سيما الصيفي بالجبال والسفن والبساتين والأودية وقافلة الإبل كما تسمع من العرب في خطبهم... فإذا قد عرفت ما سمعت من المناسبات فـ {ينزل من السماء} أي من جهة السماء. "من جبال" أي من سحاب كالجبال. "من برد" أي في لونه ورطوبته وبرودته. فإذا هذا! ما أجرك مع وجود هذا التأويل الذي تقبله البلاغة على اعتقاد نزول المطر بدقيقتين من مسافة خمس مائة سنة المخالف لحكمة الله الذي اتقن كل شيء صنعاً¹⁸.

يقول بديع الزمان: حين تُفسر هذه الآية الكريمة بالمعنى الظاهري القطعي فإنه يعني "حجود حق البلاغة، إذ الاستعارة البديعة في الآية الأولى تتوقد بحيث تذيب الجمود المتجمد، وتشق كالبرق ستار سحب الظاهر."¹⁹

والمثال الثاني الوارد في رسائل النور حول إستعمال الحجاز هو "مسألة الثور والحوت" المشهورة. يحلل بديع الزمان هذه الرواية كالتالي:

"لا يخفى ان "مسألة الثور والحوت" المشهورة دخيلة في الاسلام وطفيلية عليه، أسلمت مع راويها، فان شئت راجع "المقدمة الثالثة" لترى من أي باب دخلت. أما نسبتها الى ابن عباس رضي الله عنهما، فانظر الى مرآة "المقدمة الرابعة" ترى سرّ الحاقها به. وبعد هذا فان كون "الارض على الثور والحوت" يروى فيه حديث: أولاً: لا نسلم انه حديث، لان عليه علامة الإسرائيليات. ثانياً: ولو سلمنا انه حديث، فانه آحادي، يفيد الظن لضعف الاتصال. فلا يدخل في العقيدة، اذ اليقين شرط فيها.

ثالثاً: حتى لو كان متواتراً وقطعي المتن، فليس يقطعى الدلالة.²⁰ وفي حالة قبول صحة هذه الرواية، يؤوّل بديع الزمان الحديث بثلاثة أوجه:

"الوجه الأول: فكما ان حَمَلَة العرش المسماة بـ: الثور، النسر، الانسان، وغيرهم ملائكة، كذلك هذا الثور والحوت ملكان اثنان حاملان للارض. والأ فان تحميل العرش العظيم على الملائكة، بينما الارض على ثور عاجز - كالارض - مناف لنظام العالم! ويرد في لسان الشريعة: ان لكل نوع ملكاً موكلاً خاصاً به يلائمه، وقد سمي ذلك الملك باسم ذلك النوع، بناء على هذه العلاقة، وربما يتمثل بصورته في عالم الملائكة. وقد روي حديث بهذا المعنى: ان الشمس تغرب في كل مساء تحت العرش وتسجد عنده ثم تستأذن وتعود.

نعم ان الملك الموكل على الشمس اسمه الشمس ومثاله الشمس، وهو الذي يذهب ويؤوب. ولدى الفلاسفة الالهيين: ان لكل نوع ماهية مجردة حية ناطقة تمد الافراد. ويعبر عنهم الشرع: ملك الجبال وملك البحار وملك الامطار، الا انه لا تأثير لهم تأثيراً حقيقياً اذ لا مؤثر في الكون الا الله. اما الحكمة في وضع الاسباب الظاهرية فهي في اظهار العزة والعظمة لكي لا يرى النظر المتوجه الى دائرة الاسباب مباشرة يد القدرة لأمر خسيصة ظاهرة من دون حجاب. أما في الملكوتية وفي حقيقة الامر وهي دائرة العقيدة، فان مباشرة يد القدرة بدون حجاب لكل شيء، يلائم العزة؛ اذ كل شيء في هذه الجهة سام وعال... ذلك تقدير العزيز العليم.

18- اشارات الإعجاز/ ص 139-140

19- صيقل الإسلام/ محاكمات عقلية/ ص 90

20- صيقل الإسلام/ محاكمات عقلية/ ص 73

الوجه الثاني:

ان الثور هو المثير للحرث وأهم واسطة لزراعة الارض وعمارتهما. أما الحوت (السمك) فهو مصدر عيش اهل السواحل، بل كثير من الناس. فإذا سأل أحد: بِمَ تقوم الدولة؟ فالجواب: على السيف والقلم. او اذا سأل: بِمَ تقوم المدينة؟ فالجواب: على المعرفة والصناعة والتجارة. او اذا سأل: بِمَ تدوم البشرية وتبقى؟ فالجواب: بالعلم والعمل.

كذلك احاب سيد الكونين وفخر العالمين ρ - والله أعلم - بناء على ما سبق ذلك السائل الذي لم يستعد ذهنه لدرك الحقائق - بدلالة المقدمة الثانية - وسأل عن شئ خارج نطاق وظيفته: الارض على أي شئ؟ فاجابه رسولنا الكريم ρ بما يلزمه أصلاً: الارض على الثور. اي ان عمارة الارض لنوع البشر ومنع الحياة لأهل القرى منهم، على الزراعة، والزراعة محمولة على كاهل الثور. وان معظم معيشة القسم الآخر من البشر، ومعظم مصادر تجارة أهل المدينة، في جوف السمك وعلى الحوت. حتى يصدق عليهم المثل السائر: كل الصيد في جوف الفراء! فهذا جواب لطيف حق حتى لو كان مزاحاً فإنه ρ لا يقول إلا حقاً. ولو سلم ان السائل سأل عن كيفية الخلق. فقد [تلقى السامع بغير المتقرب] كما هو القاعدة في علم البيان، اذ تلقى الاجابة عن الضروري والمطلوب بأسلوب حكيم.

الوجه الثالث:

ان الثور والحوت برجان مقدّران في مدار الارض السنوي. فتلك البروج وان كانت افتراضية موهومة، إلا ان السنن الالهية الجارية في العالم والتي تنظم وتربط الاجرام السماوية والمسماة لفظاً واصطلاحاً بالجادبية العامة، قد تركزت في تلك البروج، لذا فالتعبير الفلكي: "الارض على البروج" جائز.

هذا الوجه هو في نظر علم الفلك الحديث، لأن القديم قد افترض البروج في السماء، بينما الحديث افترضها في مدار الارض، لذا يجوز هذا التأويل أهمية في نظر الفلك الحديث.²¹ ورأي الأستاذ النورسي حول التشابهات القرآنية حسب افادته كالاتي:
"أما الجواب عن الريب الأول وهو وجود التشابهات والمشكلات:

فاعلم! ان ارشاد القرآن الكريم لكافة الناس، والجمهور الأكثر منهم عوام، والأقل تابع للأكثر في نظر الارشاد. والخطاب المتوجه نحو العوام يستفيد منه الخواص ويأخذون حصتهم منه.. ولو عكس لبقى العوام محرومين، مع ان جمهور العوام لا يجردون اذهانهم عن المألوفات والمتخيلات، فلا يقتدرون على درك الحقائق المجردة والمعقولات الصرفة إلا بمنظار متخيلاهم وتصويرها بصورة مألوفاتهم. لكن بشرط ان لا يقف نظرهم على نفس الصورة حتى يلزم الخيال والجسمية او الجهة بل يمر نظرهم الى الحقائق.

مثلاً: إن التصرف الالهي في الكائنات يتصور بصورة تصرف السلطان الذي استوى على سرير سلطنته. ولهذا اختير الكناية في {الرحمن العرش استوى} (سورة طه:5) واذا كانت حسيات الجمهور في هذا المركز فالذي يقتضيه منهج البلاغة ويستلزمه طريق الارشاد رعاية افهامهم واحترام حسياتهم، ومماشاة عقولهم ومراعاة أفكارهم. كمن يتكلم مع صبي فهو يتصوى في كلامه ليفهمه

ويستأنس به. فالأساليب القرآنية في أمثال هذه المنازل تسمى بـ "التنزيلات الإلهية الى عقول البشر"، فهذا التنزل لتأنيس اذهانهم. فلهذا وضع صور التشابهات منظراً على نظر العلماء. ألا ترى كيف أكثر البلغاء من الاستعارات لتصور المعاني الدقيقة، أو لتصوير المعاني المتفرقة! فما هذه التشابهات الا من أقسام الاستعارات الغامضة، اذ انما صور للحقائق الغامضة"²²

الكنائية

ومن الفنون التي يستعملها بديع الزمان في التأويل الكناية

يقول في هذا الموضوع:

"ومن الأصول المقررة أيضاً:

ان الصدق والكذب، أو التصديق والتكذيب في الكنايات وأمثالها لا يرجعان الى صورة المعنى، أي الى "المعاني الاولى" كما يعبر عنها في البيان، بل يتوجهان الى المقصد والغرض، أي الى "المعاني الثانوية". فكما اذا قيل: "طويل النجاد" فالحكم صحيح والكلام صدق ان كان الشخص طويل القامة وان لم يكن له سيف. وكما تكون الكلمة الواحدة في كلام، قرينة المجاز للاستعارة، فان طائفة من الآيات الكريمة، كأنها كلمة واحدة لكلام الله، تكون قرائن لحقائق وجواهر سائر أحوالها، وترجمان وأدلاء على ما في ضمائر جاراتها من أسرار.

حاصل الكلام: من لم يضع هذه الحقيقة نصب العين، وعجز عن موازنة الآيات، ولم يتمكن من الحكم بينها حكماً عدلاً، يكون كالبكتاشي الذي قال لتسويغ تركه الصلاة؛ ان القرآن يقول: {لا تقربوا الصلاة}.. أما ما بعده فلست حافظاً للآية! ألا يكون هذا موضع هزة في نظر الحقيقة؟! "²³

ويوصي بديع الزمان بالإبتعاد عن الإفراط والتفريط في موضوع التأويل، كسائر الموضوعات، انسجاماً مع الروح الإسلامية. فهو يرى "ان ميل التفريط من شأنه حمل كل شيء على الظاهر.. حتى لينتهي الامر تدريجياً الى نشوء مذهب الظاهرية مع الاسف. وان حب الافراط من شأنه النظر الى كل شيء بنظر المجاز، حتى لينتهي الامر تدريجياً الى نشوء مذهب الباطنية الباطل. فكما ان الاول مضر فالثاني اكثر ضرراً منه بدرجات"²⁴

كما حذر الاستاذ عن هذا الطريق المهلك، فقد قدّم الميزان للوصول الى الصراط المستقيم، وحسب نظره ان هذا الميزان هو "فلسفة الشريعة مع البلاغة، والحكمة مع المنطق".

نعم! أقول: الحكمة (الفلسفة) لها خير كثير مع تضمنها الشر، الا انه شرٌ جزئي. ومن الاصول المسلمة انه يلزم اختيار أهون الشرين.

نعم! ان الحكمة القديمة (الفلسفة القديمة) خيرها قليل، حرافتها كثيرة، حتى نهي السلف - الى حد ما - عنها، حيث الاذهان كانت غير مستعدة، والافكار مقيدة بالتقليد، والجهل مستول على العلوم. بينما الفلسفة الحاضرة فخيرها كثير - من جهة المادة - بالنسبة للقديمة، وكذبها وباطلها قليل. والافكار حرة في الوقت الحاضر، والمعرفة مسيطرة على الجميع. وفي الحقيقة، لا بد ان يكون لكل زمان حكمة"²⁵

وخلاصة القول نستطيع أن نقول: ان مؤلف رسائل النور الاستاذ بديع الزمان سعيد النورسي

22- اشارات الإعجاز / ، ص 175

23- صيقل الإسلام/ المحاكمات ، ص 31

24- صيقل الإسلام/ المحاكمات، ص 41

25- صيقل الإسلام/ المحاكمات/ ص 41

يرى أن التعليم الموجه للظاهر في المدارس الدينية المنتشرة في العالم الإسلامي، ادت الى تأخرها، وخروجها عن مسراها الطبيعي.

لذا فقد اتبع طريقاً وسطياً في تأويل المتون الدينية كآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، مبتعداً عن الإفراط والتفريط، ومتبعاً حلاً وسطاً ملائماً. وعندما يتعارض النقل مع العقل، فهو يتخذ العقل اساساً وعليه يؤول النقل، مستعملاً في هذا المجال قواعد البلاغة، والمنطق، وأمثالها من الفنون كالمجاز والتشبيه والاستعارة والكناية، ولم يقبل التأويل غير الموافق للكتاب والسنة، وقواعد البلاغة والمنطق.

ولهذا السبب فكما هو يُعارض الباطنية المفرطة المعارضة للموازين السابقة، كذلك يعارض الظاهرية التي تقيم كل شئ حسب الظاهر، وتبقى في حالة مستهزئ أمام العقل.

ترجمة : جميل شانلي